القربان:
الفضاءات القدسية لجسد الأمام الحسين (ع)
مقاربة أنثروبولوجية

د.جعفر نجم نصر

أستاذ أنثروبولوجيا الدين/الجامعة المستنصرية

يُجمع عدد هائل من علماء الأنثروبولوجيا لاسيما أولئك المتخصصين منهم بما يسمى بـ"البيولوجيا الاجتماعية"، على أن هنالك صلات وثيقة بين الجينات الوراثية وبين التوجهات الثقافية للأفراد، بعبارة أخرى أن هنالك تفاعل بين الانتخاب الجيني والانتخاب الثقافي، إذ أن الأخير تحكمه بنظرهم خيارات الناس المحددة وراثياً (جينياً)، وهي المسماة قوانين التخلق المتعاقب "**The laws of successive creation**" والتي تعني بنحو مختصر: أن الجينات تتحكم في الثقافة[1].

فالجينات الوراثية للإمام الحسين (ع)، والتي شكلت فيما بعد الخارطة الثقافية لجسده، إنما كانت قائمة في الأصل على جيناته المتوارثة لديه أي:

من والدته السيدة فاطمة الزهراء (ع) وهنا جينات النبي (صلى الله عليه واله وسلم) بالمعنى الثقافي / الاخلاقي تنتقل في الكروسمات عن طريق الأم أي (23) كروسوم.

ومن والده الإمام علي بن أبي طالب (ع)وهنا جينات الولي بالمعنى الثقافي / الاخلاقي تنتقل في الكروسمات عن طريق الأب أي (23) كروسوم.

فبين (23) كروسوم من النبوة (الوحي) و(23) كروسوم من الإمامة (الولي) ، تأتي الخصائص الوراثية الكاملة للإمام، وبالتالي هي التي وجهت سلوكه الثقافي، لقد كان قول النبي (ص) واضحاً في تحديد مسار هذه الجينات ذات المنحى الثقافي الخاص عندما قال: (حسينٌ مني (جيناً وراثياً)(*) وأنا من حسين (ثقافياً تعبيراً)(**)[2].

وقد يسأل سائل هنا: إذا كان الأمر على هذا النحو، بمعنى مادام أن جيناته الوراثية وجهت سلوكه الثقافي على مدى عمره إلى يوم اختيار الشهادة أمام جيش السلطة، فهو لا فضل له في خياراته واختياراته الثقافية التي اختارها أو انتخبها ثقافياً التي ميزته عن أبناء عصره آنذاك؛ وفي الحقيقة أن الأمر ليس على هذا النحو الفج من الصلة العلية بين الانتخاب الجيني (حفيد نبي وابن ولي) والانتخاب الثقافي الذي هو قول النبي (ص):

(الحسن والحسين إمامين أن قاما وأن قعدا)، أي أنهما مقصد الأمة ووجهتها الثقافية؛ لأن الإمامة من الأم، أي الوجهة والقبلة، وبالتالي فهما مخيران في فعلهما الثقافي، وإلا لو كان الإمام الحسين (ع) مجبراً على أن يقدم نفسه للقتل فلا قيمة لفعله، ولكن ما دام أنه يمتلك الحرية في القيام بالإصـــلاح أو القعود عنه ولكنه آبى إلا الفعل الثقافي/ الديني الأول، وكما قال (ع): (لم أخرج أشراً ولا بطراً إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي رسول الله)[3]، وهذا يعني:

وتأكيداً للمعطى الأول، أي إن الإمام الحســين (ع) لم يرتكن على الجين في فعله الثقافي/ الديني هو عبادته المستمرة طوال عمره، حتى الليلة الأخيرة قبل استشهاده (ع)، إذ أمر أخيه العباس (ع) أن يذهب للقوم قائلاً له: (أرجع إليهم، فإن استطعت أن تؤخرهم إلى غدوة وتدفعهم عند العشية لعلنا نصلي لربنا الليلة وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أني قد كنتُ أحب الصــلاة له وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار)[4]، ويشكل الجسد العمود الناظم لهيكلية الأداء العبادي والروحي، ولهذا ارتبط النظام الطقســي الديني بنظام الأداء الجسـدي، أكثر مما هو أداء نطقي (إنشـاد، تراتيل "**hymnals**" وابتهالات "**litangs**")، وممارســة الأداء، يأتي من نظام إشــارات ظاهرية منبعثة من قلوب مؤمنة، تؤثر في تحريض البواطن اليقينية[5].

وجسد الإمام (ع) كان في فضاءات عبادية هائلة، بمعنى آخر أنه لم يراوح في مكانه الجيني (حفيد النبي وابن الولي)، إذ أصر دائماً على أن يكون مصداقاً فعلياً لصلته الدائمة بالمقدسات أياً كانت أصنافها أو نماذجها؛ فهو على سبيل المثال حاله كحال أخيه الإمام الحسن (ع) لم يرتكنا إلى حديث جدهما (ص) المشهور فيهما (عليهما السلام) والمتفق عليه لدى جمهور المسلمين عامهم وخاصهم إلا وهو: (الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة)[6]، ولو أمعنا النظر في عمق هذا الحديث لنجد الآتي على صعيد (الجسد المقدس):

أولاً: سيدا ⟵ زعماء أو قادة أو المتقدمين على كافة الموجودين في العالم الغيبي.

ثانياً: شباب ⟵ إن أجساد الصالحين تبعث شباباً في عالم البقاء والثواب.

ثالثاً: أهل الجنة ⟵ إنهما متقدمان على الجميع، في هذا العالم الغيبي الذي هو المطلب والمآل النهائي لكل حركية للجسد في عالم الدنيا.

فهما (عليهما السلام) عبرا بجسديهما من المقدس (التعبد إليه) إلى تقديسهما (عبر قربهما الشديد من المقدس)، وذلك من خلال نيلهما لا الفردوس، بل عبر نيلهما الزعامة الأخروية، كما في نص الحديث النبوي؛ ولكن على أرض الواقع الأمر لم يحول بينهم وبين دخولهم الفعلي في فضاءات العبادة مشتركين فيها مع سائر العابدين وأن كان لهما مكانة أرحب من الجميع في هذا المجال.

ولكن السؤال المركزي هنا هو كيف أصبح الإمام الحسين (ع) في دائرة المقدس لاسيما بعد حمله الخصائص الجينية/ الوراثية؟ بعبارة أخرى، ما هي الدلائل الدينية الرئيسة التي أهلت جسد الإمام (ع) ليكون جسداً مقدساً؟

في الحقيقة نحن نملك في البدء النص الإلهي (القرآن الكريم) ليخبرنا بالمعطى الرئيس عن قدسية جسد الإمام (ع) والذي هو بالضرورة التجلي الفعلي لقداسة النفس المالكة لهذا الجسد. وهذا ما أشرته الرؤية العليا للمقدس: **(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)** [لأحزاب: ٣٣][7].

والرجس – بالكسر فالسكون – صفة من الرجاسة وهي القذارة، والقذارة هيئة في الشيء توجب التجنب والتنفر منها، وتكون بحسب ظاهر الشيء كرجاسة الخنزير، قال الله تعالى: **(أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ)** [الأنعام: ١٤٥]، وبحسب باطنه – وهو الرجاسة

والقذارة المعنوية – كالشـــرك والكفر وأثر العمل الســـيء، **وقال تعالى (وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًـــا إِلَى رِجْسِـــهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ)** [التوبة: ١٢٥]، وقال **(وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ)** [الأنعام: ١٢٥]، وهنا يعلق الطباطبائي قائلاً: "وأياً ما كان فهو إدراك نفساني وأثر شعوري من تعلق القلب بالاعتقاد الباطل أو العمل السيء، وإذهاب الرجس،...، إزالة كل هيئة خبيثة في النفس تخطئ حق الاعتقاد والعمل فتنطبق على العصمة الإلهية التي هي صورة علمية نفسانية تحفظ الإنسان من باطل الاعتقاد وسيء العمل"[8].

فنفس الإمام (ع) وجســـده بموجب هذه الآية والمعاني والدلالات ســـيكونان على النحو الآتي:

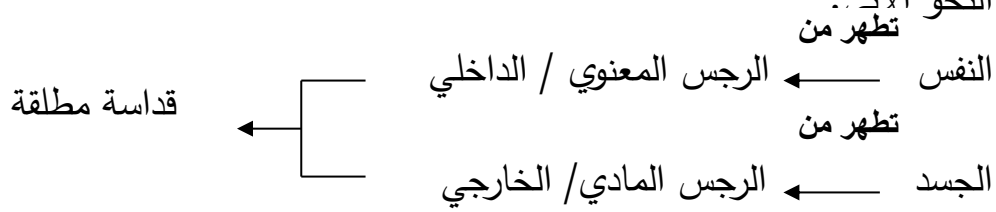

ولعل عملية التطهير الشاملة تلك توضح لنا عمق التشاكل بين الكينونتين (الروحية – الجســدية)؛ وأنهُ مثلما وجد الإنســان نفســه حقيقة عقلانية (بحســب مراجعات الفكر الحديث) في جوهر تكوينه، هو أيضــاً حقيقة جســدية في جوهره وحضــوريته، وهنا فإن مقولة أرسطو (إن النفس هي صورة الجسد الإنساني) لا يمكن تجزئتها، ومما يعني أن جســد الإنســان، هو حضــور امتدادي لعالمه الخارجي، وأن إدراكه لقوانيه القيمية، هو حضــور امتدادي لعالمه الروحي الداخلي، وبذلك لا يمكن البتة أن تكون حقيقة موجوديته في داخله، وإنما في حقيقته الخارجية، وأن الجسد يشكل الأرضية الحيوية للحضورية المتحركة في المكان المشخص[9].

إن هذه الحيوية المتحركة في المكان أو الفضـــاء المشـــخص تأخذ أبعاد ومديات كثيرة وهائلة، لاسيما إذا علمنا أن حضور جسد الحسين (ع) مع الأجساد الطاهرة الأخرى من أهل البيت (عليهم السلام) كان ضمن مدى وأفق اجتماعي/ ديني ذا مدلول واسعة إلا وهو أن يكون جســـده حجةً وبرهاناً لدعوى دينية قال بها النبي (ص) والتي تمثلت فيما عرف بـــــ: (المباهلة) بين النبي (ص) والنصارى من أهل نجران إذ عبرت الآية القرآنية

الآتية عن هذه الواقعة: **(فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)** (آل عمران: ٦1).

فلما تواعدوا على المباهلة لكي يؤكد لهم النبي (ص) أنهُ مرسل من الله تعالى وإن نبيهم عيسى (ع) بشر ليس إلا، جاء النبي وقد غدا محتضناً بالحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه، وعلي خلفها وهو يقول: إذا أنا دعوت فأمنوا، فقال أسقف نجران، يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً[*]، لو دعوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها فلا تباهلوا فتهلكوا[10]. فإنهم لم يباهلوا، بل بقوا على دينهم ودفعوا الجزية.

وهنا نلحظ أن جسد الحسين (ع) تحرك من:

فضاء الطهر (الذات) ← الى ← فضاء البرهان (الموضوع)

بمعنى إن عملية الخلو من الرجس المعنوي (النفس) والرجس المادي (الجسد) كان في فضاءات المقدس دليلاً وبرهاناً على حجية دعوى النبوة من جهة، وعلى حقيقة ماهية النبوة السابقة (نبوة عيسى (ع))، وبالتالي فجسد الحسين (كسائر أجساد أهل البيت (عليهم السلام))، كان بمثابة الشفرة القدسية التي عرفّت بحقيقة وأحقية دعوى النبوة السابقة أو اللاحقة وكان وجه الحسين (ع) بحسب قول أسقف نجران الآنف ذكره: "إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله.....الخ"، بمثابة الرمز الأعلى للمقدس، لأن حقيقة الأجساد ومدارها الحقيقي هي الوجوه ودلالاتها الثقافية في المجال الاجتماعي – فما بالك هنا في المجال الديني.

وهنا نلحظ في تلك الواقعة تداخل أمرين مهمين (المقدس والجسد) في فضاء رمزي يحمل تجلياً عالياً لهذا المقدس، فهذا الأخير يتجلى دوماً على أنه واقع من نظام آخر غير نظام الوقائع (الطبيعية)، لأنه شيء يغاير الشيء العادي مغايرة تامة، ومن الجائز القول هنا" إن تاريخ الأديان، من الديانات الابتدائية حتى الديانات الراقية، يتألف من تراكم أحوال تجلي المقدس، يتألف من تجليات الوقائع أو الحوادث المقدسة،....، بل ثمة دوماً نفس الحدث السري: تجلي شيء مغاير تماماً"، تجلي واقع من غير عالمنا في مواضيع هي متكاملة مع عالمنا "الطبيعي"، عالمنا "العادي"[11].

وإذا كان المقدس يتجلى في عالمنا "العادي" في كثير من معالمه الخاصـــة بعالم الطبيعة، فإن الجســـد كان وما زال أحدى تلك التجليات، وذلك بوصـــفه دالٍ دينياً عبر التواصـــل الاجتماعي مع بيئته أو محيطه الاجتماعي، وهذا ما جادلت عنه بقوة شـــديدة الانثروبولوجية ماري دوغلاس **Mairy Doglas** في كتابها "**Natural Symbols**" عندما أشـارت إلى أن الجسـد البشـري الصـورة الأكثر جاهزية للنظام الاجتماعي، وهي تقترح أفكاراً عن الجسـد البشـري تسـتجيب بشـكل مباشـر لأفكار دائمة عن المجتمع، إذ بحسب رأيها أن هنالك قطاعات من المجتمع تنزع أو تميل إلى تبني مقاربات للجسد وبما يستجيب لأوضاعها الاجتماعية[12].

وهذا هو في الحقيقة الذي يدفع الإنســان الديني للاســتجابة لوضـــعه الاجتماعي ضـــمن ســـياقات ثقافية واجتماعية تفرض عليه أن ينحو منحاً خاصـــاً يجعل بموجبه هذا الجسد تحت الأوامر الإلهية بطريقة مباشرة "الوحي" أو غير مباشرة بما ينوب عن "الوحي" كشـخص النبي أو الولي أو نصـهما/ الديني/ الثقافي المتروك للجماعة الإنسـانية، وذلك ليكون جسده ليس تعبيراً عن وضعه الاجتماعي بوصفه جسد "إنسان متدين" فحسب، بل وصفه جسداً متماهياً مع الكون برمته.

وهذا ما عبرت عنه تصـورات مرسـيا الياد حينما قال: "إن الإنسـان الديني، إذ يحيا فإنه لا يحيا وحده أبداً، وإنما يحيا في كيانه جزءاً في (العالم)"[13]، وما أدل على ذلك إلا قول الإمام (ع) في دعائه المعروف بـــ"دعاء عرفة": "إلهي ترددي في الآثار يوجب بُعد المزار فاجمعني عليك بخدمةٍ توصـلني إليك، كيف يسـتدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك أيكون لغيرك في الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصـــل إليك عميت عين لا تراك عليها رقيباً وخسـرت صـفقة عبدٍ لم تجعل له من حبك نصـيباً، إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار فارجعني إليك بكسوة الأنوار وهداية الاستبصـار حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصـــون الســـر عن النظر إليها ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها،..."[14].

وبين أن يكون جزءاً من العالم بأســـره، وبينَ أن يكون العالم تعبير عن المطلق أو المقدس، فإن هذا يعبر عن التجلي المقدس في جسده (ع) من جهة، وتجلي المقدس (الله

سبحانه وتعالى) له في كل شيء، إذ نجدهُ يقول (ع): "...وأنتَ الذي لا إله غيرك تعرفت لكل شـــيء فما جهلك شـــيء وأنت الذي تعرفت إلي في كل شـــيء فرأيتك ظاهراً في كل شيء وأنت الظاهر لكل شيء..."[15].

وفي الحقيقة أن هذا الخطاب (الدعاء) لهو خطاباً عرفاني، ومن الواضـــح فيه أن لغة الجسد هي المستخدمة فيه، وذلك بوصفها التعبير الفعلي عن لغة الروح[16]،

ستكون أبعاد الجسد ومدياته هي الشاهد على الإيمان بالمقدس الأعلى (الله سبحانه وتعالى)، والبرهان على تمامية (العقيدة – الطقوسـية)، وهذا ما عبر عنه الإمام الحسـين (ع) في دعاء عرفة: "وأنا أشـــهد يا إلهي بحقيقة إيماني وعقد عزمات يقيني وخالص صريح توحيدي وباطن مكنون ضميري وعلائق مجاري نور بصري وأسارير صفحة جبيني وخرق مسارب نفسي وخذاريف مارن عرنيني ومسارب سماخ (صماخ) سمعي وما ضمت وأطبقت عليه شـفتاي وحركات لفظ لسـاني ومغرز حنك فمي وفكي ومنابت أضـراسـي ومساغ مطعمي ومشربي وحمالة أم رأسي وبلوغ فارغ حبائل عُنقي، وما اشتمل عليه تامور صـدري وحمائل حبل وتيني ونياط حجاب قلبي وأفلاذ حواشـي كبدي وما حوته شـراسـيف أضـلاعي وحقاق مفاصـلي وقبض عواملي وأطراف أناملي ولحمي ودمي وشـعري وبشـري وعصـــبي وقصـــبي وعظامي ومحي وعروقي وجميع جوارحي وما انتســج على ذلك أيام رضـاعي وما أقلت الأرض مني ونومي ويقضـتي وسكوني وحركات ركوعي وسـجودي أن لو حاولت واجتهدت مدى الأعصار والأحقاب لو عمرتها أن أودي شكر واحدةٍ من أنعمك ما استطعت ذلك إلا بمنك الموجب علي به شكرك أبداً جديداً..."[17].

وهذا التفصـيل الدقيق لتشـكل الجسد (أيام رضـاعي) وحركيته المتلازمة بين بُعدي الزمان والمكان (أقلت الأرض)، وسكونيته المستحصـلة في (النوم)، إنما تجد أفقها الرحب حينما تتواصـل مع المقدس (حركات ركوعي وسـجودي) عبر المجال الطقسـي/ الشـعائري، ولكن الأصـــل لذلك كله هو عمليات تمثل المعتقد بـــــ(المقدس) والذي يتخلل (الشـــعور واللاشـــعور)، وينبســط في تدفقات الدم، ويتمدد في ثنايا الجســد، لدرجة أن يغدو المقدس متجلياً في مطعم الجسد ومشربه.

ولقد تجلت مديات هذا الجســـد (المقدس)، جســـد الإمام الحســـين (ع) في يوم عاشوراء عام (61هـــ)، عندما كان الجسد بالنسبة له مجرد أداة للتعبير عن طاقة المقدس

(العبودية الكاملة) وتنفيذ إرادته (أصـــلاح النظام الاجتماعي) فعلاً، وهذا فحوى خطبة الامام (ع) وهو في مسيره نحو الكوفة اذ قال : (ايها الناس ان رسول الله (ص) قال من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله، ناكثا لعهد الله، مخالفا لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقا على الله ان يدخله مدخله)، الا وان هؤلاء قد لزموا طاعة الشـــيطان وتركوا طاعة الرحمن واظهروا الفســـاد وعطلوا الحدود واســـتأثروا بالفيء واحلوا حرام الله، وحرموا حلاله، وانا احق من غيَّر....)[18]، حتى لو عرض نفسه للقتل، وهذا ما حدث فعلاً.

ولقد عبر الإمام (ع) عن مآلات جسده الشريف في خطبة قالها لأصحابه لما اعتزم على المضـــي إلى العراق: "خُط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخُيّر لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء..."[19].

وفي المقاطع الأخيرة من هذه الخطبة وصف دقيق ومكثف لما سيؤول إليه جسد الإمام (ع)، وإن كان هنا هو يؤكد على حقيقة أنه مقتول لا محالة ولكن أثناء تواصـــله العبادي مع المقدس الأعلى (الله ســـبحانه وتعالى)، فأنه قد (خُيّر) أي منح الإرادة الحرة في اختيار نهاية هذا الجسد المقدس، ثم يكشف الإمام هذه الميتة المريعة (يرى) أوصال جسده، والأوصال (أجزاء بنية الجسد)، يراها تقطع على أيدي عسلان (ذئاب)[20] الفلوات (الصحارى) بين النواويس (مقابر للنصارى)[21] وأرض الكرب والبلاء.

ولعل تأكيدات حصول هذا المصرع كثيرة بين احاديث النبي (ص) وإردافات الإمام علي بن أبي طالب (ع) لتأكيد هذا الأمر[22]. ورؤى الإمام الحسين (ع) نفسه التي هي أشبه بأشارات التأكيد الإلهي على مصرع الإمام (ع) وبعض أهل بيته وجميع أصحابه، ففي أثناء مسيره إلى الكوفة وفي الليل: "خفق الحسين برأسه خفقة، ثم انتبه وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين؛ قال ففعل ذلك مرتين أو ثلاثاً، قال: فأقبل إليه أبنهُ عليّ بن الحســـين على فرس له فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين، يا أبتِ، جُعلت فداك! مِمَ حمدت الله واسترجعت؟ قال: يا بني، إني خفقتُ برأسي خفقة فعنّ لي فارس على فرس فقال: القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم، فعلمتُ أنها أنفسنا نُعيت إلينا، قال له: يا أبتِ، لا أراك الله ســـوءاً، ألســـنا على الحقّ! قال: بلى والذي إليه

مرجع العباد؛ قال: يا أبتِ، إذاً لا نبالي؛ نموت محقين، فقال له: جزاك الله من ولدٍ خيرَ ما جَزى ولداً عن والده"[23].

وتكرر هذا الأمر مع الإمام الحسين (ع) في اليوم التاسع من محرم وجيش عمر بن سعد متهيأ للقتال، إذ كان الإمام (ع) جالساً أمام بيته بعد صلاة العصر محتبياً بسيفه، إذ خفق برأسه على ركبتيه، وسمعت أخته السيدة زينب صيحة بن سعد الذي أمر جيشه بالتقدم نحو معسكر الإمام (ع)، فدنت من أخيها، فقالت: يا أخي، ما تسمع الأصوات قد اقتربت! قال: فرفع الحسين رأسه، فقال إني رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في المنام فقال لي: إنك تروح إلينا، قال: فلطمت أخته وجهها وقالت: يا ويلتا! فقال: ليس لك الويل يا أخية، اسكني رحمك الرحمن..."[24].

فأحلام الإمام (ع) كانت بمثابة استشراف للمستقبل الآني الذي يحيط به ضمن سياقات حركة المجتمع، بعبارة أخرى أنه هذه الأحلام والرؤى كانت بمثابة الأشارات الإلهية المرسلة للإمام (ع) لبيان زمان الموت ومكانه الذي لا محيص عنه للإنسان، والأحلام والرؤى هنا تؤكد على مستقبل مسارات الجسد بنحو عام، ولعل أطروحة المفكر روجر كايوا "**Roger Caillois**" في كتابه "الحلم والمجتمع البشري" نجد صداها في معالم تسليم الإمام (ع) للمشيئة الإلهية المنكشفة بالحلم، إذ يقول كايوا: "في عتمة الغياهب وظلمة مغالق الطبيعة تصير "الأحلام" بمثابة الرؤى الروحية التي لا غنى للإنسان عنها، فهي بفضل مصدرها المفعم بالأسرار تحظى بسلطة تفوق قوانين الطبيعة شدة، فتسبر أغوارها وتخترق ظلماتها لذلك فإن الإلهام الذي يتمخض عن الأحلام له مهمتان: استيعاب الحدث قبل وقوعه ثم تقييده وتثبيته، فالأحلام تقر الواقع على النحو الذي سوف يتم فيه. وهكذا يجيء الحلم فيبدد غموض المستقبل ويقضي على أوهامه واحتمالاته المتعددة"[25].

وبالتأكيد أن الرؤى الصادقة هي من نصيب المالكين لتجارب دينية عالية وعلى صلات مستمرة مع المقدس، تلك الصلات التي أساسها طهر الجسد وتعبده المستمر كحال جسد الإمام الحسين (ع)، والذي كانت الأحلام والرؤى بالنسبة له كلها ترميزات دينية عن مآله هو وأهل بيته وأصحابه، وهي بطبيعة الحال هنا وبنظر كارل غوستاف

يونغ "تعد الرموز الجماعية أكثر أهمية من الرموز الفردية، وذلك لكونها إلهية المصـــدر وثمرة الوحي؛ وهي تتجلى بوضوحاً أعمق من خلال الأحلام[26]".

وتأسيساً على ما تقدم كله، وكيما نجمع الفضاءات المختلفة للجسد المقدس (جسد الأمام (ع))، سنوضح ذلك كله عبر الترسيمة الآتية:

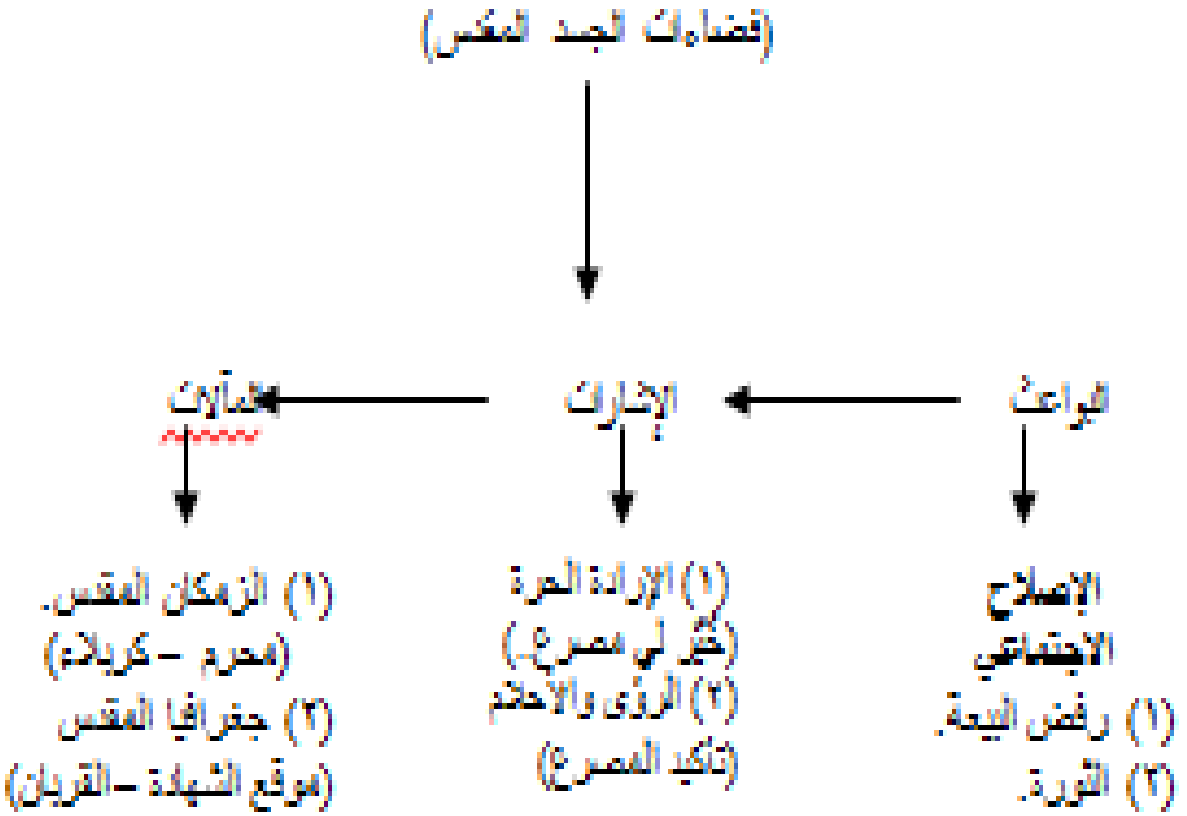

لقد تحدثنا سـابقاً عن مسـألتي (البواعث والإشـارات)، وينبغي لنا الآن الحديث عن (الزمكان المقدس)؛ إذ أن من المعروف على الأدبيات الانثروبولوجية أنها لم تستطع أن تفصـــل مقولة الزمان **(Time)** عن مقولة المكان **(Space)**، إذ أنهم لا يســـتطيعون أن يتفقوا على الأطر الإصـــطلاحية للزمان من دون أن يعرجوا إلى المكان، ولعل مرجع ذلك بالنسبة لها هو أن عمليات التمثيل الجماعي للمقولات بالنسبة لأبناء الشعوب التي درسوها تعمد إلى إجراء عمليات التداخل والاندماج بين تلك المقولات، وذلك على اعتبار أن الهوية المميزة للزمان لا يمكن إدراكها إلا عن طريق المكان، وما يسند ذلك هو التصورات الدينية حول الكون لدى معظم الديانات"[27].

وبغض النظر عن تلك التصورات الدينية آنفة الذكر، فإن المعطى الواقعي يبين لنا بوضوح شديد أن الزمان لا يدرك أو يشعر به على المستوى الاجتماعي إلا عبر مكان معين تجري فيه آليات الفعل الاجتماعي، ذلك الفعل يؤشر على المعنى أو المدلول الثقافي المرصود في جدلية (الزمان والمكان)؛ ولقد مر بنا كيف إن الأمام الحسين (ع) خُير له مصرع هو لاقيه جراء حركته الإصلاحية، فهذا المصرع بطبيعة الحال هو دال (اجتماعي – ثقافي) على معالم زمانية – مكانية تتجلى في واقعة الشهادة*، التي تم اختيارها من الإمام (ع) والشهيد بحسب رأي علي شريعتي: "هو من يمنح وجوده بالكامل في عملية واحدة، ويفني نفسه من أجل تلك العقيدة، وذلك هو الهدف المقدس الذي نؤمن به وبقدسيته جميعاً، ومن الطبيعي أن تسري قدسية المعتقد والهدف بالكامل إلى الوجود الذي ضحى به الشهيد، ولهذا نلاحظ وجوده يعدم في لحظة ويتحول إلى صفر، بيد أنهُ يكتسب قيمة الهدف الذي ضحى من أجله اكتساباً مطلقاً، ويتحول إلى "قداسة" مطلقة في ذهن الأفراد وأفكارهم، لقد تحوّل الإنسان النسبي إلى إنسان مطلق؛ لأنه ما عاد إنساناً، شخصاً، أو فرداً وإنما هو فكر مقدس، لقد راح الفرد فداءً للفكر فصار فكراً[28].

وهو بدأ طريق الشهادة في مكان مقدس (مكة) في زمان مقدس (ذي الحجة) في يوم التروية، وجهته الكوفة، فمر بأراضٍ كثيرة (التنعيم – الصفاح – الحاجر – زرود – الثعلبية – زبالة – شراف – البيضة – ذي حسم – العذيب – قصر بني مقاتل)[29]، وبكل واحدةً منها يقيم الحجة أو البرهان على طهارة جسده ونقاء نفسه عبر عباداته المستمرة، فضلاً عن خطبه وخطاباته المبينة لمغزى حراكه في هذه الجغرافيا المتنوعة، وهنا يأتي الزمان المقدس (يوم الثاني من شهر محرم سنة إحدى وستين) وتبيان معالم الأرض أو (المكان المقدس)" "وأقبل الحسين على أصحابه فقال: الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معايشهم، فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون، ثم قال: أهذه كربلاء؟، قال نعم يا ابن الرسول، فقال: هذا موضع كرب وبلاء ههنا مناخ ركبنا، ومحط رحالنا، ومقتل رجالنا، ومسفك دمائنا"[30].

إن أرض كربلاء والتي تسمى كذلك "نينوى" وتسمى "العقر" والتي تعوذ منها الإمام (ع) عندما سمع ذلك قائلاً: "اللهم إني أعوذ بك من العقر"[31]، والعقر في لغة العرب معناه "النحر" وقيل إن العرب كانوا إذا أرادو نحر البعير عقروه أي قطعوا إحدى قوائمه ثم

نحروه، يفعل ذلك به كيلا يشـرد عند النحر[32]، ولهذه المعاني بطبيعة الحال تعوذ الإمام (ع) من مسـمى الموضـع، أو المكان الذي نزلوا فيه. وهنا نلحظ الصـلة بين (العقر) و (النحر)، والإمام (ع) تذكر في هذا الموضـع حادثةً مر بها قائلاً: "ولقد مرّ أبي بهذا المكان عند مسـيره إلى صـفين وأنا معه فوقف فسـأل عنه، فأخبر بأسـمه. فقال: ها هنا محط ركابهم، وها هنا مهراق دمائهم، فسـئل عن ذلك، فقال: ثقل لآل محمد ينزلون ها هنا، وقبض قبضـة منها فشمها، وقال: هذه والله هي الأرض التي أخبر بها جبريل رسول الله التي أقتل فيها. وقال الإمام لأصـحابه: أرض كرب وبلاء، ثم قال: قفوا ولا ترحلوا منها، فها هنا والله مناخ ركابنا، وها هنا والله سـفك دمائنا، وها هنا والله هلك حريمنا وها هنا والله قتل رجالنا، وها هنا والله ذبح أطفالنا، وها هنا والله تزار قبورنا وبهذه التربة وعدني جدي رسول الله ولا خلف لقوله"[33].

وهكذا يتضـح لنا معالم (الزمكان المقدس) الذي تجلى عبر حركية الجسـد المقدس للإمام الحسين (ع) ومآلاته والتي كانت برمتها إشارة واضحة لتجلي المقدس في ما يعرف لدى الكثير من الديانات العالمية حسب رؤية مرسيا الياد بـ"مركز العالم" أي (كربلاء) هنا، ذلك المركز الذي يمثل الحيز المكاني للعروج نحو المقدس أو الحيز المكاني لتجلي المقدس لعابديه فيه[34].

فبين حركة الجسـد المقدس للإمام ومآلاته المعراجية نحو المقدس والمركز العالمي لتجلي المقدس (كربلاء)، تطلُ علينا معالم انثروبولوجيا الجسد المقدس للإمام (ع) بوضوح شـديد لكونها عبرت عن مجال البيولوجيا الاجتماعية من جهة وعن المديات الثقافية من جهة أخرى وذلك عبر إخضاعها الجسد للضوابط الدينية والتي جعلت من الجسد البشري تجلٍ فعلياً للمقدس ليس على مسـتوى العبادة والطقوسـية العامة بل عبر تقديمها الجسـد كقربان للمقدس الأعلى على أيدي عسـلان الفلوات (ذئاب الصـحارى) التي قطعت جسـد الإمام (ع).

والقربان أو الأضحية **Sacrphiece** المقدمة للمقدس هي عبارة عن طقس عالمي للتقرب من هذا المقدس أو ذاك في أي ثقافة، وهو بتعبير جليبر دوران أحدى آليات الاندماج مع الزمن الغيبي للمقدس[35]، وكانت تقدم للمقدس قرابين مختلفة الأشـكال

وحسب البنية الثقافية لأي مجتمع؛ وهو أمر معروف في الديانة الإسلامية كما هو معلوم وذلك بوصفه أحدى أركان طقس أو شعيرة الحج على وجه التحديد.

ولكن أن يكون جسد الإمام (ع) بحد ذاته هو القربان المقدم للمقدس أمر يلفت الانتباه، وهذا ما أشارت إليه السيدة زينب (ع) بعد مقتل أخيها الإمام الحسين (ع) عندما وضعت يديها تحت جسده الطاهر وقالت: "اللهم تقبل منا هذا القربان"[36]، وهذا القول يؤكد لنا كل ما تقدم حول نشأة جسد الإمام (ع) وحركيتها (الزمكانية) ومآلاتها (المعراجية نحو المقدس)، وذلك بأن جسد الإمام (ع) كان كله لله طاعةً وامتثالاً إلى أن قدمه قرباناً ليقترب به نحوه.

الهوامش والمصادر

---

[1] ينظر: اغنر فوج، الانتخاب الثقافي، ت: شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2008، ص44-50.

* و (**) توضيح من الباحث.

[2] ينظر مصادر الحديث في كتاب: في رحاب أهل البيت/ للسيد محمد حسين فضل الله، دار الملاك، بيروت، ط2، 1998، ص311.

[3] ينظر: مصادر الحديث، المصدر السابق نفسه، ص311.

[4] أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، الجزء الثالث، مطبعة الأميرة، بيروت، ط1، 2005، ص461.

[5] منير الحافظ، الوعي الجسدي/ الإشارات الجمالية في طقوس الخلاص الجسدي، دار النايا، دمشق، ط1، 2012، ص147.

[6] ينظر: مصادر الحديث في كتاب: في رحاب أهل البيت، مصدر سابق، ص311.

[7] ويثبت السيد محمد حسين الطباطبائي في تفسيره الشهير/ الميزان في تفسير القرآن أن هذه الآية مخصوصة بأهل البيت وهم النبي (ص)، والإمام علي (ع)، والحسن والحسين (عليهما السلام)، ووالدتهم السيدة فاطمة (عليها السلام) فقط، ولا تتضمن نسائه أبداً، ويدلل الطباطبائي على ذلك بمناقشة كبيرة وبمرويات كثيرة، يمكن مراجعتها في المجلد السادس عشر من تفسيره، ص309-313، عن منشورات: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط3، 1972.

[8] محمد حسين الطباطبائي، المصدر السابق نفسه، ص312.

[9] ينظر: منير الحافظ، الوعي الجسدي، مصدر سابق، ص165.

(*) وتعد الوجوه النورانية في أنثروبولوجيا الدين رمزاً للتماثل بين السماوي والشخص المنير، وهي أحدى علاقات المقدس، لتفاصيل أكثر حول الرموز النورانية وصلتها بالأجساد المقدسة، ينظر: كتاب: الانثروبولوجيا/ رموزها، أنساقها، أساطيرها، لـــ: جليبير دروان، ت: د. مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط3، 2006، ص122-127,

(10) ينظر: تفاصيل ذلك كله في كتاب: الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، المجلد الثالث، ص231-232.

(11) مرسيا الياد، المقدس والعادي، ت: عادل العوا، دار التنوير، بيروت، 2009، ص51.

(12) ينظر: تفاصيل ذلك في كتاب: الجسد والنظرية الاجتماعية لـــ: كرس شلنج، ت: منى البحر، نجيب الحصادي، دار كلمة (أبو ظبي)، دار العين (القاهرة)، ط1، 2009، ص106-107.

(13) مرسيا الياد، المصدر السابق نسفه، ص192.

(14) عباس القمي، مفاتيح الجنان، انتشارات المكتبة الحيدرية، قم، إيران، 1382، ش، ص340-341.

(15) المصدر السابق نفسه، ص342.

(16) ينظر: منير الحافظ، المصدر السابق نفسه، ص52، ونحن نعارض فيما ذهب إليه بنصنا أعلاه.

(17) عباس القمي، المصدر السابق نفسه، ص331.

18 ابي مخنف لوط ابن يحيى الازدي الكوفي، مقتل الامام الحسين بن علي، منشورات الجمل، بيروت، بغداد، 2009، ص65-66.

(19) ينظر مصادر هذه الخطبة لدى: أحمد حسين يعقوب، كربلاء/ الثورة والمأساة، دار الغدير، بيروت، ط1، 1997، ص183.

(20) ينظر تفاصيل ذلك لدى: ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثاني، طبع دار لسان العرب، بيروت، د.ت، ص779.

(21) ينظر تفاصيل ذلك: المصدر السابق نفسه، المجلد الثالث، ص741.

(22) ينظر تفاصيل ذلك كله لدى: أحمد حسين يعقوب، المصدر السابق نفسه، ص 184.

(23) أبي مخنف، مقتل الإمام الحسين بن علي، مصدر سابق، ص71-72.

(24) المصدر السابق نفسه، ص81.

(25) أنا ماري شيمل، أحلام الخليفة/ الأحلام وتعبيرها في الثقافة الإسلامية، ت: حسام الدين جمال وآخرون، منشورات الجمل، كولونيا (ألمانيا)، بغداد، ط1، 2005، ص17.

(26) ينظر تفاصيل ذلك: د. بسام الجمل، من الرموز إلى الرمز الديني/ بحث في المعنى والوظائف والمقاربات، دار الرؤية، القاهرة، ط1، 2011، ص44-45.

(27) ينظر:

Alan Barnard and Jonathan Spencer, The Routiedge Encyclopedia of social and cultural Anthropology, second edition, New York, 2010, pp. 689-690.

[*] يبدو أن مفهوم الشهادة بدأ يأخذ بشكل واضح معنى الموت المقدس بعد الفتح الإسلامي لفلسطين في القرن السابع، في شكل يوازي المفهوم اليوناني "**Marturos**" مع ما يحمله من ازدواجية في المعنى، الشاهد والشهيد، لتفاصيل أكثر ينظر كتاب: شهداء الله الجدد لـ: فرهاد خسرو خافار، ت: جهيدة لاوند، مؤسسة المدى، بغداد، ومعهد الدراسات الاستراتيجية، بيروت، سلسلة الفكر الاجتماعي (2)، ط1، 2007، ص23-25.

[28] د. علي شريعتي، الإمام الحسين وارث آدم، ت: علي الحسيني، دار الكتاب الإسلامي، بغداد، ط1، 2002، ص57.

[29] ينظر تفاصيل ذلك في كتاب: مقتل الإمام الحسين بن علي- لأبي مخنف، مصدر سابق، ص55-71.

[30] ينظر مصادر الرواية كتاب: كربلاء/ الثورة والمأساة، مصدر سابق، ص260.

[31] الطبري، المصدر السابق نفسه، ص456.

[32] ابن منظور، المصدر السابق نفسه، المجلد الثاني، ص837.

[33] ينظر مصادر الرواية كتاب: كربلاء الثورة والمأساة، مصدر سابق، ص261.

[34] ينظر تفاصيل ذلك: مرسيا الياد، صور ورموز، ت: حسيب كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 1998، ص51-67.

[35] ينظر: جليبر دوران، الانثروبولوجيا/ رموزها، أنساقها، أساطيرها، مصدر سابق، ص287-289.

[36] لتفاصيل أكثر حول مصدر هذه الرواية، ينظر: كتاب: أضواء على ثورة الحسين للسيد محمد الصدر، دار ومكتبة البصائر، بيروت، ط1، 2010، ص-90-91.